المحاضرة السادسة : مقاومة الأمير عبد القادر

لا يمكن المرور لدراسة المقاومات الوطنية الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي دون تسليط الضوء على أبرز هذه المقاومات والتي تعد رمزا مشرفا في تاريخ المقاومة الجزائرية بالنظر لعديد الخصائص التي احتوتها وجعلت منها نموذج وطني مشرف، تمكن من تحقيق عديد الانجازات على مختلف الأصعدة والمستويات.

1/ظروف بيعته:

بعد استيلاء الاحتلال الفرنسي على مدينة وهران دخل هذا الأخير في اشتباكات عنيفة مع القبائل العربية المدافعة التي كانت تبحث عن شخصية قيادية تنظوي تحت قيادتها فاتصل أعيان القبائل وعلمائهم بالشيخ محي الدين الذي عرف بحسن سيرته وطيب سمعته فعرضوا عليه لكنه رفض وأشار إليهم بالسلطان المغربي مولاي عبد الرحمان (1822-1851)لتولي هذه المهمة وفعلا توجه وفد من الأعيان للسلطان الذي لبى العرض وعين عليهم ابن عمه "علي بن سليمان "خليفة له على تلمسان وهو الشيء أثار ضجر فرنسا وجعلها ترسل بتهديد للسلطان المغربي وأجبرته عن التخلي عن تلمسان وطلب من ابن عمه مغادراتها وبهكذا صورة عادت الفوضى والاضطرابات لإقليم الغرب الجزائري من جديد.

وهنا تحرك وفد الأعيان مجددا لمحي الدين لطلب القيادة الدينوية والجهادية فاقترح ابنه نظرا لما يتوفر عليه من كفاءة ومقدرة وأخلاق وسمات قيادية فقبل اقتراحه وتمت مبايعة عبد القادر يوم 3 رجب 1248هـ/ 27 نوفمبر 1832تحت شجرة الدردارة بوادي فروجة الواقع بسهل غريس أما البيعة الثانية فكانت بقصر الإمارة بمعسكر من طرف وفود معظم قبائل الجهة الغربية ومن هنا بدأ عهد الدولة الجزائرية الحديثة حيث شرع الامير في توحيد القبائل وتنظيم شؤون دولته ثم شرع في المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الفرنسي.

2/ مراحل المقاومة :

<u>1* انطلاق المقاومة وقوتها</u> :

قاد الأمير المقاومة في رقعة شاسعة وجعل الغرب مركزا ومنطلقا لها نحو الوسط والشرق الجزائري، واستطاع تحقيق العديد من الانتصارات العسكرية والسياسية التي جعلت المستعمر الفرنسي يتعثر في سياسته التوسعية أمام استماتة المقاومة.

هذا و شرع الأمير في تنظيم الجيش إدراكا منه لفاعليته إذ به يتمكن من عرقلة ومنع التوسع الفرنسي في الغرب الجزائري فركز على فرق المدفعية وحرب العصابات واخضع الجيش لقوانين عسكرية صارمة وقسم الجيش لوحدات قتالية مختلفة.

فبعد بروزه في مقاومة المحتل إلى جانب والده في معركة خنق النطاح الأولى في 29 ماي 1832 ، تولى بنفسه قيادة المعركة الثانية من خنق النطاح في 4 جوان من عام 1832 بالإضافة إلى معارك أخرى كمعركة مستغانم في 27 يوليو/تموز 1833 ضد قوات الجنرال ديميشال . وطلب هذا الأخير الصلح وعقد معاهدة عرفت باسمه في 1834/02/26 والتي نصت على:

- توقيف القتال
- حرية التجارة
- إطلاق سراح الأسرى بين الجانبين
- احترام الدين الإسلامي وعادات وتقاليد الجزائريين المسلمين الاعتراف بسلطة الطرفين

واستغل الامير هذه المعاهدة في تنظيم دولته من خلال الاعتماد على العنصر الكفء من رجال الدين والعلم واستجلب الأوربيين لتدريب الجيش النظامي أقام صناعات حربية وراسل دول أجنبية عارضا عنها التعاون ضد فرنسا ، ثم عزلت فرنسا ديمشال 1835 وعينت خلفا له تريزيل الذي نقض المعاهدة وتجدد القتال بذلك مع الامير فكان النصر حليف الامير هذه المرة أيضا في معركة السيق 1835/06/26 ومعركة المقطع في 1835/06/26 وذاع صيت انتصارات الأمير في ربوع الجزائر وحتى تونس والمغرب وفرنسا وتركيا.

هذا الانهزام من طرف العدو جعله يقدم على تنحية تريزيل وتعويضه بلامورسيير وتعيين كلوزيل خلفا للحاكم العام ديرلون ، فحاول كلوزيل تشديد الخناق عن الامير

وأقدم على القيام بعدة غارات ناجحة أمكنته من الاستيلاء على مدينة معسكر في ديسمبر 1835وتلمسان جانفي 1836 وسرعان ما استرجعت المقاومة قوتها وتمكنت من إلحاق ضربات بالعدو وحققت عليه انتصارات في معركة واد السكاك في 1836/07/06 الشيء الذي دفع بالقائد الجديد بيجو لمراسلة الأمير بعرض الصلح فاستجاب الأمير ووقع معاهدة التافنة في 30 ماي 1837وأهم ما جاء فيها :

- اعتراف الأمير بسلطة فرنسا على مدن وهران ومستغانم ، أرزيو ومدينة الجزائر وسهل متيجة
- الاعتراف بسلطة الأمير على مدن وهران والتيطري والقسم الذي لم يدخل تحت نفوذ فرنسا من إقليم الجزائر من الناحية الشرقية .
- يدفع الأمير للفرنسيين بوهران مقدارا من الحبوب وعددا من الأبقار
- يمكن للأمير أن يشتري ما يحتاجه من الأسلحة والذخائر
- تتخلى فرنسا للأمير عن تلمسان ومرسى رشغون
- حرية التجارة بين الطرفين .
- تعيين ممثلين عن الطرفين في المدن التي تحت سلطتهما.

2*/ مرحلة تنظيم الدولة(1837-1839)

اخذ الأمير في تنظيم دولته وفق أسس تنظيمية عصرية فإداريا قسمها إلى ثماني أقسام وعلى كل إقليم خليفة له وقسم كل إقليم إلى نواحي وعلى رأس كل ناحية أغا والناحية مقسمة الى اعراش أو قبائل وعلى رأس كل منها قائد وكل قبيلة أو عرش إلى فرق وعلى رأس كل فرقة شيخ .

شكل الأمير حكومته مذ 1833 واختار لها رجال أكفاء لتولي المهام الوزارية وأنشأ مجلسا للشورى ضم إحدى عشر عضوا ونظم مالية الدولة ونظم القضاء وفق منظور اسلامي واقام مصانع للسلاح والبرود في مليانة وتلمسان ومعسكر والمدية وشيد الحصون كحصن سبدو في جنوب تلمسان وحصن تازا بتسمسيلت وأولى عناية أيضا بالتعليم والتجارة واتخذ راية وخاتما لدولته وصك عملة عرفت باسم المحمدية .

3*/ مرحلة تراجع المقاومة ونهايتها:

خرق الاحتلال المناطق التابعة للأمير من خلال توجيههم لحملة بقيادة الدوق "أورليان "من قسنطينة إلى الجزائر عبر سطيف ، الشيء الذي تسبب في عقد الامير مجلس شورى تقرر فيه إعلان الجهاد ضد العدو فهاجم الجزائريون بقيادة الخليفة ابن سالم العدو في متيجة وفي مناطق أخرى من البلاد ، وبعد عزل الحاكم العام فالييه وتعيين بدلا منه بيجو (1841-1847) اتبع هذا الأخير سياسة الأرض المحروقة ضد الشعب الجزائري عامة وضد مقاومة الأمير خاصة فحرق القرى وأباد سكانها ودمر المزارع وشن هجومات خاطفة على القبائل الموالية للأمير ونكل بها وسلب املاكها، ومن خلال هذه السياسة أمكن للاحتلال احتلال المدية شرشال مليانة عام 1840 كما استولوا على تاقدمت وتازا وبوغار وسعيدة عام 1841 بل احتلوا زمالة في 15 ماي 1843 بقيادة دوق دومال ، أين قاموا بتخريبها وأسر حوالي 3000 شخص من أتباع الأمير وسبي النساء والأطفال .

تحت وطأة هذه الظروف اضطر الأمير للتوجه للمغرب في 1843 عساه يجد الدعم ولمساندة من السلطان عبد الرحمان بن هشام (1778-1859)غير ان الضغوطات الفرنسية ومطالبتهم للسلطان بالامتناع عن دعمه ، فرفض السلطان في البداية ولكن بفعل قنبلة طنجة والصويرة في شهر أوت 1844 وقيام القوات الفرنسية بقيادة بيجوا بضرب القوات الملكية أين ألحقت بها هزائم نكراء في معركة إسلي كانت بمثابة الصفعة للأمير بسبب تخلي السلطان عن دعمه والتي تجسدت فعليا بإبرام معاهدة طنجة مع فرنسا في 1844/09/10 التي اعتبرت الأمير خارجا عن القانون في تراب الجزائر والمغرب

في خضم هذه التهديدات قفل الأمير عبد القادر راجعا للجزائر وواصل المقاومة حيث خاض معركة سيدي ابراهيم قرب الغزوات في شهر سبتمبر 1845 وحقق فيها نصرا هاما وقاد هجومات أخرى ضد الغزاة في متيجة والتيطري وبلاد القبائل الشيء الذي اضطر بيجوا لاستخدام اشد أساليب العنف والقهر ضد السكان لمنعهم من دعم الأمير الشيء الذي صعب من مهام الأمير أكثر خاصة بعد استسلام خليفته بن سالم في مارس 1847 فاضطر للعودة للمغرب لكن قوات السلطان طاردته وأجبرته للانسحاب للجزائر مجددا .

هذه الظروف مجملة يضاف إليها استنزاف المقدرة القتالية للأمير دفعته للقيام بإجراء اتصالات مع القائد الفرنسي لاموريسيير طالبا منه الأمان حرية المغادرة من الجزائر نحو الإسكندرية أو عكا واحترام الدين الإسلامي ومنح أنصاره حرية البقاء في الجزائر أو مغادرتها ثم سلم نفسه بعدما استجاب القائد الفرنسي لشروطه بموجب اتفاق 1847/12/23الا الفرنسيين نقضوا عهدهم كما في كل مرة و عاملوا لأمير كأسير ونقلوه إلى فرنسا خلال شهر جانفي 1848فبقي هناك سجينا ولم يطلق سراحه الا عام 1852وفي عام 1856 توجه الأمير إلى دمشق التي أمضى فيها بقية حياته إلى وافته المنية عام 1883رحمه الله.